رسائل تلّغرافيّة
(٢٣)

آياتٌ تَحْتَاجُ إلى بَيَانٍ
«الآيةُ الخامسة»

كتبه
الدكتور ابن الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، **أما بعد**:

فهذه بفضل اللَّه ومَنِّه والذي لا تتم الصالحات إلا به هي الآية الخامسة في سلسلة: «**آيات تحتاج إلىٰ بيان**»، وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال السعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣١٨):

«يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم، وهي الاستجابة للَّه وللرسول؛ أي: الانقياد لما أمرا به، والمبادرة إلىٰ ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نَهيَا عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه.

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصف ملازم لكلّ ما دعا اللَّه ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية اللَّه تعالىٰ ولزوم طاعته، وطاعة رسوله علىٰ الدوام.

ثم حذّر عن عدم الاستجابة للَّه وللرسول فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾، فإيَّاكم أن تردّوا أمر اللَّه أو ما يأتيكم، فيُحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، فإن اللَّه يحول بين المرء وقلبه، يقلبّ القلوب حيث شاء ويصرفها أنّىٰ شاء». اهـ

وقال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٢):

«قال البخاري: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟﴾ أجيبوا، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يصلحكم، حدثنا . . . . عن أبي سعيد بن المعلىٰ قال: كنت أصلّي، فمرّ بي رسول اللَّه ﷺ فدعاني فلم آته حتىٰ صلّيت ثم أتيته فقال: «**ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل اللَّه**: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال: «**لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج**»، قال: «**هي** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [رواه البخاري في «صحيحه» (٤٦٤٧)]، وقال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: الحق، وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والتُّقاة والحياة. وقال السُّديّ: ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر [قلت: قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].]

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزّكم اللَّه تعالىٰ بها بعد الذل، وقوّاكم بها بعد الضعف، ومكنكم من عدوّكم بعد القهر منهم لكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان» رواه الحاكم في «مستدركه» موقوفًا، وقال: صحيح ولم يخرجاه [حديث (٣٢٦٥) وقال الذهبي: صحيح].

وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ حتىٰ تَرَكَهُ لا يعقل.

وقال السّدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه.

وقال قتادة: هو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]». اهـ

وقال القرطبيّ في «جامعه» (٧/ ٢٧٩):

«والقلب موضع الفكر، وهو بيد اللَّه، متىٰ شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل، أي: بادروا إلىٰ الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال العقل.

وقال مجاهد: المعنىٰ يحول بين المرء وعقله حتىٰ لا يدري ما يصنع.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي: عقل.

وقيل: يحول بينه وبين الموت، فلا يمكنه استدراك ما فات.

وقيل: خاف المسلمون يوم بَدْرٍ كثرة العدو فأعلمهم اللَّه أنه يحول بين المرء وقلبه، بأن يبدّلهم بعد الخوف أمْنًا، ويبدّل عدوّهم من الأمن خوفًا.

وقيل: يُقلب الأمور مِنْ حالٍ إلىٰ حال، وهذا المعنىٰ جامع.

واختيار الطبري: أن يكون ذلك اختيارًا من اللَّه ﷻ بأنه أمْلك لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتىٰ لا يدرك الإنسان شيئًا إلا بمشيئة اللَّه ﷻ». اهـ

قلت: ويوافق هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ويظهر منها جليًّا المراد بالاستجابة في الآية الأم المذكورة آنفًا.

قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٨٠):

«هذا وعد من اللَّه تعالىٰ لمن عمل صالحًا -وهو العمل المتابع لكتاب اللَّه وسنة نبيّه من ذكر أو أنثىٰ من بني آدم، وقلبه مؤمن باللَّه ورسوله، وأن العمل المأمور به مشروع من عند اللَّه- بأن يجيبه اللَّه حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أيّ جهة كانت.

وقد رُوي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسّروها بالرزق الطيّب.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسّر بالقناعة، وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ووهب بن مُنبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها السعادة.

وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلّا في الجنّة.

وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وهي العمل بالطاعة والانشراح بها.

● والصحيح: أن الحياة الطيبة تشمل هذا كُله، كما جاء في الحديث... عن عبد اللَّه بن عَمْرو: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم ورُزِق كفافًا وقنّعه اللَّه بما آتاه**» [رواه مسلم (١٠٥٤)]، وروىٰ الترمذي [(٢٣٤٩)] عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**قد أفلح من هُدِيَ إلىٰ الإسلام وكان عيشه كفافًا، وقنع به**» وقال الترمذي: هذا حديث صحيح». اهـ

وقال القرطبيّ في «جامعه» (١٠/ ١٢٧):

«وفي الحياة الطيبة خمسة أقوال: ....، الثالث: توقيفه إلىٰ الطاعات فإنها تُؤديه إلىٰ رضوان اللَّه، قال معناه الضحاك، وقال أيضًا: من عمل صالحًا وهو مؤمن في فاقة ومَيْسرة فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر اللَّه ولم يؤمن بربه

ولا عمل صالحًا فمعيشته ضنك لا خير فيها.

وقال أبو بكر الورّاق: هي حلاوة الطاعة، وقال سهل التُّستري: هي أن ينزع عن العبد تدبيره ويردّ تدبيره إلىٰ الحق.

وقال جعفر الصادق: هي المعرفة باللَّه، وصدق المقام بين يدي اللَّه، وقيل: الاستغناء عن الخلق والافتقار إلىٰ الحق، وقيل: الرضا بالقضاء». اهـ

● تفسير القرآن بالمأثور هو تفسير القرآن بالقرآن والسنة وأقوال السلف وأهل الاجتهاد والاستخراج والاستنباط إذا لم يوجد في الآية نقل:

هذا هو منهج أهل السنة والجماعة، وبه كان تفسير شيخ المفسرين ابن جرير الطبري، ومن بعده، وهو في الأصل منهج صحابة رسول اللَّه ﷺ.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢- ١٧٥].

فهذه الآيات خلاصة معنىٰ الاستجابة وآثارها علىٰ المسلم وفي قلوب المؤمنين، فالخير كل الخير في الاتباع والانقياد، والشر كل الشر في الابتداع والإعراض، وهذا لبّ الإسلام ودعامته وركنه الأم، فمهما جئت أو ذهبت؛ فإن مرجعية الصلاح والفلاح إلىٰ ذلك.

وأن يدعو المؤمن ربّه بتثبيت القلب علىٰ الدين، وبهذا تنجو.

روىٰ مسلم في «صحيحه» (٢٦٥٤) من حديث عبد اللَّه بن عمرو: أنه سمع

رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يُصَرّفه كيف يشاء**»، ثم قال رسول اللَّه ﷺ: «**اللهم مُصَرِّفَ القلوبِ صَرِّفْ قلوبنا إلىٰ طاعتك**».

وذلك؛ لأن اللَّه لما قال في الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، وبيّنت معنىٰ الاستجابة ومعنىٰ الحياة الحق قال تعالىٰ بعدها: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فظهر الربط بين شِقَّيْ الآية، وأن الاستجابة للَّه وللرسول مطردة ومستمرة مع ثبات القلوب علىٰ دينه الذي هو الاستجابة للَّه وللرسول والانقياد لطاعتهما، سلبًا وإيجابًا، وجودًا وعدمًا، وعليه فليحذر الإنسان من مكر اللَّه، قال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ثم قال في نفس السورة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، فمن رحمة اللَّه ورأفته وودّه أن يحذرنا من عذابه؛ لأن المصير إليه سبحانه ليعلم من استجاب إليه، ومن أعرض عن ذكره.

● فإن ما يجري للأمة في هذه الآونة، ابتداء بما حدث في ثورة يناير المشئومة، ثم ما حدث بعدها، وسقوط الدول وهلاكها وملايين القتلىٰ والمرضىٰ والمشردين، وتلاحق الأحداث في سوريا، وليبيا، واليمن، والعراق، ولبنان، وما استجد من فيروس الكورونا، وما يتبعه من المستجدات وموت مئات الآلاف وإصابة الملايين من هذا الوباء، ومصيبة سدّ النهضة، وغير ذلك؛ فإن هذا يجعل العقلاء أن يُداوموا علىٰ الاستجابة للَّه وللرسول، والرجوع إلىٰ اللَّه بالتحصن بالتقوىٰ من الموت الذي هجم علىٰ الناس أجمعين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

● **الثمار الجليلة للاستجابة للّه وللرسول:**

قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٦- ٧٠].

روىٰ الطبراني في «المعجم الصغير» (٥٢)، و«الأوسط» (٤٨٠)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٧/ ٦٣، ٦٤/ حديث (١٠٩٣٧) وقال: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح، غير عبد اللّه بن عمران العابدي وهو ثقة»، من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل إلىٰ النبيّ ﷺ فقال: يا رسول اللّه، إنّك لأحب إليَّ من نفسي، وإنّك لأحبّ إليّ من أهلي ومالي، وإنك لأحبّ إليّ من والدي، وإنّي لأكون في البيت فأذكرك؛ فما أصبر حتىٰ آتي فأنظر إليك، وإني إذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلتَ الجنّة رُفِعْتَ مع النبيين، وأني إذا دخلت الجنّة خشيت أن لا أراك؟! فلم يردّ عليه النبيّ ﷺ شيئًا حتىٰ نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قال السعدي في «تفسيره» (ص١٨٥):

«قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨] فأخبر تعالىٰ أنهم لو فعلوا ما يوعظون به، أي: ما وُظّف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا هممهم ووفّروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم

يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد أن ينظر إلىٰ الحالة التي تلزمه القيام بها، فيكملها، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا، حتىٰ يصل إلىٰ ما قُدّر له من العلم والعمل في أمر الدّين والدّنيا، وهذا خلاف من طمحت نفسه إلىٰ أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلىٰ ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط.

- **ثم رتّب ما يَحْصُل لهم علىٰ فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:**

أحدها: الخيرية في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: كانوا من الأخيار المتّصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أُمِروا بها، أي: وانتفىٰ عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأنّ ثبوت الشيء يستلزم نفي ضِدِّه.

الثاني: حصول التّثبيت والثبات وزيادته، فإنّ اللَّه يثبّت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان الذي هو القيام بما وُعِظوا به، فيثبّتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنَّواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يُوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد؛ فيوُفّق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر.

فينزل عليه معونة من اللَّه للقيام بذلك، ويحصل له الثبات علىٰ الدين عند الموت وفي القبر.

وأيضًا، فإن العبد القائم بما أُمر به، لا يزال يتمرّن علىٰ الأوامر الشرعيّة حتىٰ يألفها ويشتاق إليها وإلىٰ أمثالها، فيكون ذلك معونة له علىٰ الثبات علىٰ الطاعات.

الثالث: قوله: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.

الرابع: الهداية إلىٰ صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحقّ ومحبّته وإيثاره والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح علىٰ ذلك، فمن هُدِيَ إلىٰ الصراط المستقيم، فقد وُفّق لكلّ خير، واندفع عنه كل شرّ وضَيْر». اهـ

فما أحسن وأجمل وأقوىٰ هذه الثمار؛ المترتبة علىٰ الاستجابة للَّه وللرسول، واللَّه الموفِّق والهادي إلىٰ سواء الصّراط، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد، وصلىٰ اللَّه علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد للَّه رب العالمين.

بلّغه

الباحث الشرعي الدكتور: عيد بن أبي السعود الكيَّال

دكتوراه من كلية الشريعة الإسلامية

جامعة الأزهر بالقاهرة